إشـــكالات الشـواهد والسياق في التفسير اللغوي عند ثعلب

المؤلف (ون): د . حمد عثمان الشلماني
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة بنغازي.
hmdalshlmany@gmail.com

استلمت الورقة بتاريخ 2021/11/5
وقبلت بتاريخ 2021/12/15
ونشرت بتاريخ 2022/01/09
الكلمات المفتاحية:
الإشكال – الشاهد- ثعلب – لغة - تفسير

الملخص

يرمي البحث إلى لفت الانتباه لما وقع في كتاب مجالس ثعلب من إشكال وغموض في اختيارات ثعلب التفسيرية ، أو ما روي عنه أنه تفسير لغوي ، وقد توزع البحث على مقدمة أشارت إلى الغاية من البحث ، والمقصود بالمجالس والأمالي ، ثم كان المبحث الأول في ذكر مختارات من الألفاظ التي عرض لها أبو العباس ، والتعليق على بعض شواهدها ، وجاء المبحث الثاني في عرض نماذج من تفسير ثعلب لبعض الآيات ، ثم كانت الخاتمة في ذكر الأسباب التي كانت وراء ضعف إخراج كتاب المجالس .

المقدمة

الحمد لله منور قلوب المؤمنين بمصابيح معاني قرآنه ، مزين ألسنة الفصحاء بجمال ألفاظه ، صارف الهمم إلى تجلية الحق والصواب في تفسير كتابه ، والصلاة والسلام على خير عباده وآله وأصحابه ، ومن تبعهم على الحق بتوفيقه وإحسانه .

وبعد: فقد لا نكون في حاجة ملحة إلى ترجمة عالم من رؤوس الكوفيين ، وإمام من أئمة اللغة والتفسير المشهورين كالإمام أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (**ت291هـ**) بقدر ما نحن في حاجة أكثر إلحاحا إلى محاولة فهم منهجه اللغوي في شرح اللغة مفردات وتراكيب ، وفي تحقيق ما نسب إليه من تفسير مشكل لكثير من آيات التنزيل ، وما اشتهر عنه من التوجيه في إعراب الآيات ، والعناية بسياق النص ، ، والاحتجاج بالشعر ، وذلك من خلال قراءة مدققة في كتابه المجالس خاصة ، وفي بقية كتبه ، وما نقل عنه في المعاجم وغيرها ، كما لا نغفل النظر فيما جُمع من كتبه ، مثل كتاب معاني القرآن وإعرابه الذي جمعه شاكر الأسدي ، ثم أعاد بناءه أحمد أبو سالم ، وإن كنا هنا لا ندعي الإحاطة بموروث أبي العباس ، وإنما هي محاولة لتوجيه أقواله في التفسير.

المقصود بالمجالس والأمالي :

إن من يقرأ كتاب المجالس يرى أن ثعلبا لم يلتزم بما يلتزم به المؤلفون عادة من ترتيب الكتاب وتبويبه ووضع العناوين والفصول ؛ لأن الكتاب ببساطة كان يُلقى ويُملى على طريقة مجالس الإملاء التي كانت من دأب العلماء قديما في بعض تصانيفهم ، حيث يلقون على طلابهم من غزير محفوظهم ما شاءوا من أنواع العلوم والفنون ، أو يجيبون عن أسئلتهم إجابات مطولة أو مقتضبة ، والطلاب يتلقفون ما يلقى إليهم فيحفظون أو يكتبون ، فلما قلّ الحافظ ، وكلّ الكاتب درست الأمالي والمجالس إلى يومنا هذا .

ولم يكن مصطلحا الأمالي والمجالس يختلفان في شيء كثير إلا أن المجالس يغلب عليها المداومة والاتصال ، ويُختار لها يوم أو أيام من الأسبوع ، ومكان معروف ثابت يرتاده التلاميذ والمريدون ، وأما الأمالي فإنها ـ في الغالب ـ مختصة بعلم من العلوم سواء كان حديثا أم فقها أم غيرهما ، وينتهي الإملاء بنهاية ما يمليه العالم والشيخ من حفظه أو ما أعدّه للإملاء ، وقد لا يُفرق بينهما ؛ لأن مدار الأمر فيهما أن يقعد العالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس فيتكلم بما فتح الله عليه من علم ، ويكتب التلاميذ فيصير كتابا ، كما في كتاب المجالس الذي سيأتي الحديث عن بعض ما وقع فيه من نقص ظاهر في نقل كلام أبي العباس .

ويسمي الشافعية المجالس والأمالي بالتعلــيق (1) ولهذا النوع من الدرس والتصنيف آداب وصفات أفردت لها مؤلفات ، من أشهرها الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ت463هـ) ، وآداب الاستملاء للسمعاني (ت562هـ) وغيرهما .

المبحث الأول : شرح الألفاظ وشواهدها

إن السمة الغالبة على كتاب المجالس عدم الترابط في طرح المسائل اللغوية ، ولاسيما ما يتعلق بشرح المفردات ، إذ يخلو البحث فيها من نهج واضح يسلكه المؤلف ويلتزم به ، فتصادفك بعض الألفاظ مبتوتة ، لا تعرف في أي سياق ذُكرت وفُسرت، ولماذا جيء بها في هذا الموضع ؟ وربما كانت المفردة وقعت في شاهد شعري أو آية قرآنية ، فيقف عندها أحيانا فيفسرها تفسيرا مباشرا بعيدا عن الشاهد المذكور ، وهي طريقة أقرب إلى طريقة المعجم في شرح الألفاظ منها إلى كتاب في الأدب ، غير أن المعاجم تعنى بترتيب المواد واستقصاء معانيها وشواهدها بخلاف كتاب ككتاب المجالس ، كما سنقف مع نماذج من هذا النوع .

وقد نراه في مواضع قليلة أخرى من الكتاب مندفعا في شرح بعض الألفاظ من الغريب ، يذكر ما فيها من اللغات ، حاشدا لها الشواهد والنظائر ، ويطيل النفس في بيانها إلى صفحات كثيرة من المجالس ، على غير عادته في الكتاب ، وفي باقي كتبه ، ككتاب الفصيح ، أو كتاب قواعد الشعر اللذينِ يسير فيهما على نهج واضح ، وسنن مألوف من التأليف ، كمثل ما رواه في المجالس فيما تقوله العرب في المطر وأسمائه وأوصافه ، أو في ذكر أسماء النخيل وأنواعه ، وصفات الجيد منه والرديء(2).

ثم هو قد يخوض في شرح مفردة من هذه المفردات ـ وهو هنا إمام لا يبارى بوصفه لغويا ـ ، فيقف مع أمثال وأقوال سائرة ، فيسردها حينا ، وحينا يشرحها شرح مفردات ، ولا يذكر مناسبتها ، ولا فيما تقال ، وكأن همّه الأول هو جمع النظير إلى نظيره من هذه الأمثال ، لينتقل بعدها إلى تفسير آية أو لفظة قرآنية ، ثم يعود إلى ما كان فيه من تفسير الغريب والأمثال ، فيصبح ذكر الآية وتفسيرها كالمقحم ، لا يعرف له صلة بما قبله ولا بما بعده ، فهو يقول مثلا : " العرب تقول : لا آتيك ما أنّ في بحر قطرة ، ولا آتيك ما دامت السماء سماء ، ولا آتيك ما سَمَرَ أو أسْمر ابنا سمير ، يعني الليل والنهار ، ولا آتيك ما حنّ الضب في أثر الإبل الصادرة ، ولا آتيك هبيرةَ بن سعد ، ولا آتيك القارضَ العنزي ... وقال أبو العباس في قوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ قال : يا أهل العلم ، ولا آتيك سجيسَ عُجيسَ ، وسجيس الأوجسَ ... (3) ، وانتبه لقوله : (يا أهل العلم) فإنه أراد تفسير (يا أولي الأبصار) .

ومثله قوله : " ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قرُبت القيامة ، وقال : الهَجْرع يقال : هو الجبان ، ويقال : هو الشجاع ، ويقال : الطويل ، قوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي : لا يكشفها إلا هو ، وأدخل الهاء للمبالغة ، كقولك : رجل علامة ، ويقال : هذا أهْجرُ من هذا ، أي : أطول وأحسن ، وأنشد

وحسبْتنا نزعُ الكتيبة غدوةً فيُغيُّون ونرجعُ السَّرَعانا (4)" (5)

ويلاحظ هنا أيضا ما أنشده للقطامي لا يُدرى على ماذا استشهد به ، ولا علاقة له بالآية قبله ، وهذا كثير كثرة ظاهرة ، حتى إنه إذا قيل : (وأنشد) في مواضع كثيرة عرفنا أنه لا علاقة للبيت المنشَد بسياقه في غالب الكتاب ، وقد يؤتى بهذا الفعل مبنيا للمعلوم مرة ، ومبنيا للمجهول مرة أخرى ، فتكون رواية البيت في الأولى من إنشاد ثعلب ، وفي الأخرى من رواية من يحضره ويسأله ، وهذا كله على خلاف ما يستشهد به في كتاب الفصيح مثلا ، فهو يذكر اللفظة الفصيحة أو الأفصح ثم يردفها بالشاهد المطابق لما أراده .

وتظهر عدم مطابقة الشاهد لما يفسره من المفردات جليا في قوله : " وقال أبو العباس في قوله تعالى : ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ (ص : 15) أي : من إفاقة ، أي : إقلاع ، وأنشد عن ابن الأعرابي :

يا حبّذا القامةُ والوجه الحسنْ
وهيئةُ القدِّ وإشراقُ البدن
قلتُ لها والعقلُ مني لم يَبِنْ " (6).

---

[1] ـ كشف الظنون ، 160/1

[2] ـ المجالس ، ص480 - 486 .

[3] ـ المجالس ، ص321

[4] ـ ديوان القطامي ، طبعة ليدن بريل ، ص17 ، يقال : حَمَلَ فلانٌ في الحرب فغَيَّفَ، أي كذَبَ وجبن ، وسَرَعانُ الناسِ أوائِلهم ، ينظر : الصحاح ، (غيف) واللسان ، (سرع) .

[5] ـ المجالس ، ص457

[6] ـ المجالس ، ص161، والشاهد الذي ذكره ثعلب هنا مقلوب ـ فيما يظهر ؛ لأنه وضع المقول قبل القول ، وربما أصله : قلت لها والعقل مني لم يبن يا حبذا القامة ....ولم أجده في شيء من كتب اللغة التي اطلعت عليها .

أو في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ (يونس : 12) قال : " أي : دعانا متكئا أو في هذه الحال أو في هذه الحال

لمّا رأين الشمط القفندرا ..... (1) " (2).

ويقول ثعلب في شرح معنى لا حول ولا قوة إلا بالله : " أي : لا تحوّل من معصية الله إلى طاعته إلا به وبقوته ، قال : ومنه أخذ أبو نواس ذلك الشيطان ، وأنشد لأبي نواس :

كأنما رجلُها قَفَا يدِها رجلُ غلامٍ تَهوي بدبُّوق(3)

ثم قال لي : أي ، لا تخذل رجلاها يديها ، تتبعها في السير !! " (4) ولا يُدرى ما الذي أخذه أبو نواس هنا ، وما الذي أراد ثعلب أن يلمح إليه !!

ومما أشكل من شواهده فلم يعرف مورده ما وقع من استشهاده لواو المصاحبة ـ فيما يظهر! ـ فإنه قال : " وأنشد :

فإنك والكتابَ إلى عليّ كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ

فإنك مع الكتابِ ، ومعنى حلِم الأديم ، أي فسد الأمرُ ، ويقال : ما أنت وزيد ..:وأنشد :

احمل على أحمرَ جلدٍ ما شيت .

وأنشد :

فإذا وذلك ليس إلاّ ذكرَه وإذا مضى شيءٌ كأنْ لم يُفعلِ ".

وليس بين الأبيات الثلاثة نسب ، ولا نعرف لأيّ شيء ذَكر البيتين التاليين هنا ، وإذا قلنا إن الشاهد الأخير ربما جيء به لذكر الواو ، فإن الواو في البيت الأول للمعية ـ كما نصّ ـ والواو في قوله : فإذا وذلك ...زائدة أو عاطفة على محذوف مقدر ، كما

ذكره المرادي (ت749هـ) وابن كيكلدي(ت761هـ)(5) وغيرهما ، أو أن الغرض يتعلق بمعاني هذه الأبيات ، ، فقد ذكر في قواعد الشعر الأبيات المعدَّلة ، وهي ما اعتدل شطراه ، وتكافأت حاشيتاه ، ودل أول البيت على آخره ، وآخره على أوله ، وذكر لها ألقابا(6) ، وسرد شواهد على ذلك منها البيت السابق، وليس ذكرها هنا يعنينا .

وقلما يقع الشاهد الشعري موقعه من الاحتجاج في المجالس ، ومما عثرت عليه من هذه الشواهد شاهد نقله ثعلب في تفسير معنى اللام من قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة : 61) قال : " يصدق المؤمنين ، وقال : اللام تدخل ؛ لأنه بنى الماضي والمستقبل على الدائم " يريد دلالة الماضي والمضارع على الحال والاستمرار ، وأنشد :

يذمّون للدنيا وهم يرضعونها أفاويقَ حتى ما يدرّ لها ثُعْلُ " (7)

---

[1] ـ هذا عجزه ، وصدره : فما ألوم البيض ألاّ تسخرا ... ينظر : مجاز القرآن ،26/1 ، طبعة الخانجي ، تأويل مشكل القرآن ، 154/1، تاج العروس ، تهذيب اللغة مادة (قفدر) ، والقفندر هو القبيح المنظر ، أو الضخم الرّجل ، أو الضخم من الإبل ، ولم أر أحدا فسره بالشيب في القفا غير ثعلب .

[2] ـ المجالس ، ص165 .

[3] ـ ديوانه ، ص29 ، فيه : (يلهو) مكان (تهوي) .

[4] ـ المجالس ، ص19.

[5] ـ ينظر : الجنى الداني ، ص165-166 ، والفصول المفيدة في الواو المزيدة ، ص52 .

[6] ـ ينظر : ثعلب ، ص 66 وما بعدها .

[7] ـ ينظر : الدر المصون ، السمين ، 250/3 ، وفي اللسان ، والصحاح ، (رضع) بروايات ليس فيها شاهد ، وينسب البيت لابن همام السلولي .

المبحث الثاني: تفسير القرآن

فأما إذا اتجه الكلام إلى تفسير القرآن ، فإن أبرز سمة نلاحظها في تفسير ثعلب للقرآن هي اختياره لآيات من سور شتى لا يجمعها جامع ، ولا تأتي في سياق مفهوم ، كما في شرحه لقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف : 13) " قال : مطيقين ، وقال : إذا ركب الدابة قال هذا ، وإذا ركب البحر قاله ، والمُقرن : المطيق ،﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (الصافات : 22) قال : المعنى : وقرناءهم ، ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم : 29) أي : مَن يكون في المهد صبيا فكيف نكلمه ؟ وقال : وقعت الصفة في موضع الفعل ، أي : مَن كان صبيا في المهد " (1)

وقال في موضع آخر : " ﴿ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ (الأنعام : 138) قال : محرم ، ﴿ خُذِ الْعَفْوَ﴾ (الأعراف : 199) ، قال : ما صفا ، ﴿عَفَوْا ﴾ (الأعراف : 95) : كثروا ، ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ (الأنعام : 27) قال : من نصب فالواو حرف جواب ، ومن رفع أدخله في التمني ، ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ (يوسف : 110) من قومهم أن يؤمنوا ، وظن القوم أن الرسل { قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ } النصر ، ومن قال (كُذِبُوا) يقول : كَذَّبنا الرسلُ فيما قالوا لنا " (2) .

ولربما صادفت في مواضع من المجالس غير قليلة تفسيره لبعض ألفاظ قرآنية دون أن يذكر الآية التي جاءت فيها الألفاظ ، مثل قوله الآتي مقطوعا عما قبله وبعده : " الحمولة من الأنعام : الكبار ، والفرش : الصغار "(3) ، وهو يعني قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ (الأنعام : 142) ،

وقد يقف مع بعض الآيات ليتكلم على معاني ألفاظها ، ويذكر ما فيها من إعراب ، ثم يخوض في مسائل متفرقة ، ثم يعود إلى الآية نفسها بعد طول فاصل ليكمل ما أراد إتمامه في الآية ، كمثل كلامه في قوله تعالى : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (ص :84) " أراد : فأقول الحقّ حقاً ، ومن رفع قال : فأنا الحقُّ ، والحقُّ قولي ، و (أقول) في صلة الحق ، والحقُّ يمين ، ومن قال : (فالحقُّ والحقَّ) قال : فأنا الحقُّ ، وأقول الحقَّ "(4) ثم جاء جاء بعد صفحات في كلام مبتور عما قبله فقال : " ولو خفض فقال : فالحقِّ والحقِّ ، لجاز بجعله قسما "(5) وهذا محمول أن العالم قد تقع له خلال الدرس مراجعة وتروّ ، فيعود إلى ما قاله آنفا إما مستوعبا أو مستدركا ، كما جاء في المجالس نفسها عندما عرض لتفسير المقصود بالمودة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى : 23) " يقال على ضربين : إحداهما : تودُّوني في العرب ؛ لأنه ليس بطن من العرب إلا وقد ولدته ، والأخرى : أن تحفظوا قرابتي ، ثم قال فيها لمّا روّى في المسائل فجمع القول ، وجاء بالمعنى ، قال : أنّ تودّوني في قرابتي بكم ، أو تودّوا قرابتي فيّ "(6)

وهو يسير على هذا النهج في مواضع كثيرة من الكتاب ، إلا مواضع ينتقي فيها بعض الآيات من سورة واحدة ، ويفسرها تفسير مفردات ، كما في سورة الطارق إذ يقول : " ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (الطارق : 11) قال : ترجع المطر سنة بعد سنة ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال تتصدع بالنبت ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾قال : حق ليس بباطل ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾أي : ليس بهذيان " (7).

ولا نشك أن كتاب المجالس مليء بالاختلال والإشكال ، وأنه قد عبثت به يد النّسْخ فقدّمت وأخرّت ، وزادت وحذفت ، فلم ينقل إلينا على الصورة التي أرادها مماليه، بل تعدى الخلل إلى التدخل في تفسير بعض الآيات على نحو يدفعنا إلى الشك في نسبة هذا التفسير إلى أبي العباس ؛ لعدم مواءمته لسياق الآية في مواضع ليست قليلة ، ولربما أيضا قد وقع في كلامه تقديم وتأخير لا يتناسب مع الآية المفسَّرة ، أو انتزع من مكانه ، ووضع في غير سياقه ، كما أشرنا مرارا ، ولم أر الشيخ عبدالسلام هارون علق عليه أو نبّه إليه ، وسنقف مع هذه الشواهد والنماذج غير القليلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه .

من هذه الشواهد : تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ (ق : 4) قال ثعلب : " هو القرآن كلُّه في اللوح المحفوظ أنزل الله منه ما شاء "(8) وكلامه محمول هنا على تفسير

[1] - المجالس ، ص470 - 471 .
[2] - المجالس ، ص582 .
[3] - المجالس ، ص425.
[4] - المجالس ، ص316 .
[5] - المجالس ، ص323 .
[6] - المجالس ، ص 222
[7] - المجالس ، ص595.
[8] - المجالس ، ص175 .

الكتاب المحفوظ ، والسياق في ذكر ما تأكل الأرض من أجساد الموتى ، وأنّ ذلك في كتاب حفيظ أي : حافظ لما أُودعه ، أو محفوظ من التغيير والتبديل (1) ، فلما جاء ذكر القرآن أضرب عن كلامهم في إنكار البعث ، ثم قال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وهو القرآن ، فما علاقة اللوح المحفوظ بالقرآن في هذا السياق إلا إذا كان ثعلب تكلّم في أول الآيات عن معنى القرآن المجيد ، ثم انجرّ به الكلام إلى ذكر ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ ، ثم قال ما قال ، ويبعده طول الفصل بين الموضعين ، كما أنّ ما قلناه تخمين لا دليل عليه ، غير أنّ ما لا ريب فيه أن كلام أبي العباس هنا إمّا أنه مبتور أو منتزع من موضع يفسّر فيه آية أخرى غير هذه الآية .

ومنه تفسير قوله : ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (الشرح : 3) قال في المجالس (2) : " وإنما سمي الوزير وزيرا وزيرا ؛ لأنه يحمل أثقال صاحبه ، وهو هنا حمل الإثم " فقوله : (وهو هنا حمل الإثم) تنصيص على آية غير موجودة ، ولعلها هي قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ (الشرح : 2) ؛ لأنها من السورة نفسها ، والمعنى منسجم مع ما أراده وهو حط ذنوب (3) ، ووهِم جامع كتاب معاني القرآن وإعرابه المنسوب لثعلب فوضع تفسيره هذا بيانا (4) لقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (طه:29) وما غرّه إلا أنه لم يجد الآية فارتجل آية ، ووضع تفسير ثعلب تحتها ، وشتان ما بين المعنين والسياقين.

كذلك مما نظن أنه نسب إلى تفسيره ، وليس مما قصد تفسيره من القرآن، وإنما هو من قبيل شرح مفردات غير متصل بسياق قرآني قول ثعلب " الجاهل الذي جهل أمور نفسه " (5) عقب قوله تعالى:﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾أو كما نقل ابن جني (ت 392هـ) عنه في الخاطريات أنه قال : " الذي لا يعرف الأشياء " ؛ لأنه لا يخرج عن شرح الألفاظ شرحا معجميا لبيان المعنى المباشر للكلمة ، والجاهل في التفسير والسياق هو الجاهل بباطن حال هؤلاء الفقراء الذين حُبسوا بالاشتغال في سبيل الله (6) وأن المراد جهل الخبرة لا جهل العقل العقل ، كما نص عليه جمهور المفسرين .

ومما وقع من كلام ثعلب في اللغة ، ونسب إليه على أنه تفسير للقرآن في كتابه المعاني المجموع .... ﴿..وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ.. ﴾ (البقرة : 48) قوله : " العَدْل : الكفيل والرشوة "(7) وقد بحثت عن هذا النص في كتب اللغة والمعاجم والتفسير ، فلم أجد من نقله عنه إلا أبا حيان في البحر(8) ، وعليه اعتمد جامع معاني القرآن ، وهذا ما يدفعنا إلى الشك في نسبته إلى ثعلب على أنه قصد به تفسير اللفظة القرآنيّة ، وهو ـ كما ترى ـ من الضعف والبُعد ، ولا تذكر المعاجم في معاني العدل الكفيل والرشوة ، وإنما العَدل ـ بفتح العين وكسرها ـ عند اللغويين والمفسرين هو المِثل أو المساوي أو الفِدية أو المقبول القول (9) بحسب مواضعها من القرآن ، والسياقات التي جاءت فيها .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (المدثر : 8-9) إشكال ظاهر من جهة المنقول عنه ، فالأزهري (ت 370هـ) في تهذيب اللغة يقول : " وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي في قوله : ﴿فاصبر فإذا نقر ..﴾ قال : الناقور : القلب " (10) وهو نقل على جهة التفسير ، وقال في التاج : " الناقور : القلب ، رواه ثعلب عن ابن الأعرابي " (11) وهذا تفسير لغوي للفظة الناقور معزولة عن السياق ، والذي يغلب على الظن أن الصحيح من النقلين هو الثاني ؛ لأنه يبعد عن عالم لغوي في طبقة أبي العباس أن يفسر الناقور في الآية

---

[1]- الكشاف ، 371/4

[2]- ص 225 .

[3]- تفسير القرطبي ، 22 /356 ، طبعة مؤسسة الرسالة .

[4]- معاني القرآن وإعرابه ، أبو العباس ، جمعه أحمد رجب أبو سالم ، وأصله رسالة علمية طبعته دار أضواء السلف ـ 2011 ، 736/3-737 . وله نقول عجيبة عن ثعلب لا علاقة لها بتفسير القرآن ، وإنما هي روايات لغوية لثعلب يجمعها من كتب اللغة والمعاجم ، ويضعها تحت ما يشبهها من الآيات ، كما فعل في قوله تعالى :(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) الكهف : 77 فنقل عن ثعلب قوله : " الإرادة تكون مَحبةً وغير محبةٍ " ينظر : 698/3 ، واللسان : (رود) . وكما نقل دون تمحيص قوله : (.. كنت بين ضالين فأخرجك منهم ..)، وجعله تفسيرا لقوله : (ووجدك عائلا فأغنى) الضحى : 8 ، وإنما المنقول عن ثعلب في المجالس وغيره أنه تفسير لقوله : (ووجدك ضالا فهدى) الضحى : 7 ، ينظر : المجالس ، ص 398 ، وينظر : معاني القرآن وإعرابه : 1189/3 ، وكما ادعى أن قول ثعلب " الأُمّ : امرأة الرجل المسنّة " تفسير لقوله تعالى : { .. فلأمّه الثلث } (النساء : 11) وإنما كلام ثعلب في معاني لفظة الأم ، ولم يذكر أصحاب المعاجم الآية التي زعم أنه فسرها ، ينظر : تهذيب اللغة والتاج واللسان (أم) .

[5]- المجالس ، ص222

[6] ـ يراجع : البسيط ، الواحدي ، 452/1 ، والبحر المحيط ، أبو حيان ، 697/2-698 .

[7] ـ معاني القرآن وإعرابه ، ثعلب ، جمعه أحمد سالم ، 112/1 .

[8] ـ البحر المحيط ، 303/1 ،

[9] ـ ينظر : اللسان ، وتاج العروس : (عدل) .

[10] ـ مادة : (نقر)

[11] ـ مادة : (نقر)

بالقلب ، ولم يقله أحد من أئمة التفسير ، إلا ما ذكرته كتب التفسير مرويا عنه ، بل الإجماع على أن الناقور هو الصور ، أو القرن الذي ينفخ فيه ، وأن قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾كقوله تعالى في مواضع كثيرة:﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ (الأنعام : 73).

وقد حام الإمام البقاعي (ت885هـ) حول ما نُسب لثعلب من تفسير الناقور بالقلب ـ إذا أخذنا برواية التهذيب ـ ومعناه عنده أن الذل الذي ضربه الله على الكافرين في بدر، والفتح عبر عنه القرآن بالنقر إشارة إلى أنه في شدته كالنقر في الصلب (1) ، وهو أحد قوليه ، وفيه ما فيه من البُعد والتكلف .

ومما سيق على أنه تفسير لأبي العباس قولُه في معنى الإخراج والخروج للمطلقات ومن توفي عنهن أزواجهن ، وذكر العلة الموجبة له في قوله ـ جل وعزّ ـ ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ (الطلاق : 1) : " لا يخرجن إلا لحدادٍ ، لا تخرج حتى تقضي العام ، ثم تخرج حيث شاءت "(2) فأما قوله (لِحدادٍ) فلا نشك أنه تصحيف لقول أئمة التفسير (لِحدّ) ؛ لأنّ المقصود وجوب إخراج المطلقة ومن في حكمها من السكنى إذا زنت ، وإن لم تكتمل عدتها ؛ لإقامة حد الزنا عليها(3) ، وهو معنى الاستثناء من قوله ـ تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾على الأرجح من قول الجمهور .

وقوله :(لا تخرج حتى تقضي العام) لم يقل به أحد من الفقهاء والمفسرين في تفسير هذه الآية خاصة ، وإنما النهي عن إخراجهن أو خروجهن من تلقاء أنفسهن مشروط بالطلاق الرجعي وإحصاء العدة ، ولقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ.. ﴾ (الطلاق : 6) وأما الطلاق البائن فلا سكنى على الزوج فيه ، وهذا خلاصة ما هو مذكور في فقه آيات سورة الطلاق(4) ، وأما ما جاء في البقرة من ذكر الحول في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة :240).
فقد ذهب جمع من المفسرين أن المرأة المتوفى عنها زوجها كانت تمكث في بيت زوجها مدة عام ، وعلى أهل الميت نفقتها ، ثم تخرج إلى بيت أهلها ، وليس لها من ميراثه شيء(5) ، ثم نسخ هذا بفرض العدة المعلومة وإيجاب وإيجاب الميراث لها من مال زوجها.

والمقصود أن ما ذهب إليه ثعلب ـ أو نسب إليه ـ ربما حمل على معنى هذه آية لا آية الطلاق ، وأن تفسيره يحمل على أنه أراد ما كان يُصنع في الجاهلية أو أول الإسلام من مكث المرأة في بيت زوجها المتوفى عنها حولا كاملا ، ثم تخرج إلى بيت أهلها ، وليس في سياق كلامه ما يدل على أنه أراده .

ومن هذا الضرب من التفسير مما جاء مخالفا لسياقه ، بعيدا عن مراده ما رواه غلام ثعلب عن شيخه في معنى ظلمات البطن من قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (الزمر : 6) قال : " أخبرنا أبو عمر ، قال أَنَا ثعلب عن رجاله الكوفيين والبصريين قالوا : ظلمة البطن ، وظلمة الليل ، وظلمة المشيمة ... " (6) وسياق الآية صريح في ذكر الخلق في بطون الأمهات بتطور الأحوال من النطفة إلى العلقة إلى المضغة في ظلمة البطن و المهبل والمشيمة (7) ، كما هو في آيات أخر كثيرة ، وذكر الظلمات تعبير عن جهل الخلق بمراحل الخلق ، وأن المتفرد بعلمها هو الله ـ سبحانه.

وإذن فقول ثعلب : (وظلمة الليل) خارج عن مفهوم الآية ، غير منسجم مع سياقها والذي لا أستبعده وقوع الخلط فيما نقل عن ثعلب أو ابن الأعرابي في المقصود بالظلمات ، لأن ذكر ظلمة الليل قد يراد بها تفسير الظلمات في قوله تعالى ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ..﴾ (الأنبياء : 87) فالمفسرون على أنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (8) ، ولولا قول ثعلب : (وظلمة المشيمة) لحملنا قوله على هذا الظن . **الخاتمة:**

الخاتمة:

السبب في غموض المجالس :

[1] ـ ينظر : نظم الدرر ،46/21
[2] ـ المجالس ، ص473 .
[3] ـ ينظر : البسيط ، الواحدي ، 502/21 ، نظم الدرر ، البقاعي ، 144/20 .
[4] ـ ينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، 18/ 154
[5] ـ ينظر : البسيط ، الواحدي ، 300/4
[6] ـ ياقوتة الصراط ، ص443 ـ 444 .
[7] ـ ينظر : معاني القرآن ، الزجاج ، 345/4 ، التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، 333/23-334 .
[8] ـ ينظر : جامع البيان ، الطبري ، 98/8 ، البسيط ، الواحدي ، 166/15 ، وقد زاد أبو عبيدة ظلمة الأصلاب ، ولم يلتفت إلى قوله : { في بطون أمهاتكم } .

ولعل تفسير ما ذكرناه من تفكك مسائل الكتاب راجع إلى أمرين ، أولهما : طبيعة كتب المجالس ، إذ يتنّقل فيها الحديث من مسألة لأخرى بحسب السؤال أحيانا ، وربما كان الكلام من المملي ابتداء ، ثم يعرض السؤال فيجيب بحسب ما يحضره ، إذ ليس فيما يطرح تتبع واستقصاء ، وقد ينقطع الكلام بسبب ما يفوت المستملي من كلام المملِي ، ويلتقط طرفه فلا يُفهم في أيّ سياق جاء الكلام ، ويعسر على القارئ الربط بين أجزائه ، وجمع متفرقاته ، كما أن مثل هذه المجالس قد يعرض لها الانقطاع وعدم الانتظام فيفوت من الدرس ما يفوت .

والأمر الثاني : من جهة المخطوطات التي اعتُمدت في تحقيق الكتاب ، فإن الأستاذ عبد السلام هارون اعتمد أصولا ونسخا وصفها بالمشوهة والمطموسة ، لذلك فإن الكتاب يحتاج إلى إعادة النظر بالبحث عن نسخة أخرى صحيحة قليلة الأخطاء قريبة من عصر المؤلف يعتمد عليها في فهم الكتاب وترتيبه ونظامه ، وحل إشكالاته ، ومعرفة ظروف إملائه ، وأنى لنا بنسخة غير نسخة الأستاذ هارون .

ومما نجزم به أن أيّ باحث لو أراد أن يتتبع عثرة أو زلة في أعظم كتاب لأشهر إمام لأمكنه ذلك دون عناء ، ولم يكن هذا من شأني ولا إليه قصدت ، وإنما كانت النية معقودة على تصحيح الغلط والوهم في التفسير المنسوب إلى إمام ثقة بارع في منزلة أبي

العباس ثعلب ، فإن أصبت فيما ابتغيت فإليه وحده يرجع والتوفيق والتسديد ، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان ، ويبقى لي أجر ما نويت ، وحسبي في ذلك قول الشاعر :

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج مؤمِّلا كشف ما لاقيت من عَـوَج

فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا فكم لرب الورى في ذاك من فرج

وإن بقيت بظهر الأرض منقطعا فما على عرِج في ذاك من حرج .

المراجع:

1- البحر المحيط ، أبو حيان ، تحـ صدقي جميل ، ط دار الفكر .

2 - البسيط ، الواحدي ، تحـ محمد الفوزان ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود .

3 - التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1948م.

4 - الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، تحـ أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش ، دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية 1384هـ - 1964م.

5 - الجنى الداني ، المرادي ، تحـ فخر الدين قباوة ومحمد نديم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى 1992م.

6 - الدر المصون ، السمين ، تحـ أحمد الخراط ، الناشر دار القلم - دمشق .

7 - الصحاح ، الجوهري ، تحـ أحمد عطار ، الناشر دار العلم للملايين ، 1407هـ - 1987م .

8 - الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، ابن كيكلدي ، تحـ حسن الشاعر ، الناشر دار البشير - عمان ، 1410هـ - 1990م.

9 - الكشاف ، الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ، 1407هـ .

10 - اللسان ، ابن منظور ، دار صادر - بيروت ، الطبعة الثالثة1414هـ.

11 - تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحـ إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .

12 - تاج العروس ، الزبيدي ، تحـ مجموعة من المحققين ، دار الهداية .

13 - تهذيب اللغة ، الأزهري ، تحـ مجموعة من المحققين ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى 2001م .

14 - جامع البيان ، الطبري ، تحـ إسلام الحميد ، دار الحديث - القاهرة 2010م

15 - ديوان أبي نواس ، تحـ وليم الورد ، طبعة 1861م .

16 - ديوان القطامي ، طبعة ليدن بريل ، 1902م .

17 - كشف الظنون ، حاجي خليفة ، الناشر مكتبة المثنى ، ط1942م

18 - مجاز القرآن ، أبو عبيدة ، تحـ فؤاد سزكين ، الناشر مكتبة الخانجي - القاهرة .

19 - مجالس ، ثعلب ، تحـ عبدالسلام هارون ، مطبعة دار المعارف - مصر ، ط الثانية.

20 - معاني القرآن وإعرابه ، ثعلب ، جمع أحمد أبوسالم ، دار أضواء السلف ، ط الأولى.

21 - معاني القرآن ، الزجاج ، تحـ شلبي ، دار الحديث - القاهرة ، ط1424هـ 2004م

22 - نظم الدرر ، البقاعي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد، 1391 هـ - 1971م .

23 - ياقوتة الصراط ، أبو عمر الزاهد ، تحـ التركستاني ، دار العلوم والحكم - المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، 1423هـ 2002م .